

فلسفة سينوزا

للاستاذ زكي نجيب محمود

لم يكد سينوزا يبلغ سن الشباب، حتى انكب على الفلسفة يدرسها دراسة صادفت في نفسه هوى. فأخذ ينهل من مواردها العذبة، ويؤثرها على كل شيء. وقد طالع فيما طالع فلسفة برونو فوفقت منه آراؤه موقع الإعجاب، وامتلاً ذهنه بما قاله ذلك الفيلسوف من: أن الوجود في جوهره وحدة متجانسة، وأن تعددت ظواهرها. اذ نشأت جميعها من أصل واحد، ثم اتخذت الواما مختلفة لا تغير من جوهر طبيعتها المتجانسة.

كذلك أعجبه رأى برونو المذكور القائل بأن الروح والمادة شيء واحد، فكل ذرة من ذرات الكون يتحد فيها الجانبان: الروحي والمادي، وعنده ان موضوع الفلسفة هو ادراك تلك الوحدة التي تربط هذه الأشئات المتضاربة في الظاهر فترى الروح في المادة، كما تلبس المادة في الروح.

ثم قرأ سينوزا فلسفة ديكارت قراءة درس وتمحيص، فدعاه الى التفكير الطويل رأى ديكارت في تقسيم الكون الى شطرين: شطر مادي متحد في الجوهر على الرغم مما يبدو في الأجسام المادية من اختلاف، وشرط روحي متجانس في جوهره كذلك، وهو عبارة عن مجموع القوى العقلية الحالية في مختلف الأجسام، وتدير هذين الشطرين وتشرف عليهما قوة الهية عليا... قرأ سينوزا ذلك فلم يوافق على شطر الكون، واختمرت في نفسه على الفور فكرة وحدة الوجود التي تقول بأن الكون شطر واحد لا يتجزأ، وهذه الفكرة هي المحور الذي تدور حوله فلسفة سينوزا، وها نحن أولاء نتناولها بالشرح والتحليل.

يقول سينوزا ان في الكون حقيقة واحدة خالدة، هي عبارة عن قانون عام شامل لا ينقص ولا يزيد. هذه الحقيقة الخالدة، أو هذا القانون الشامل، لا يمكن ان يعبر عن نفسه ويفصح عن حقيقته الا بواسطة الأجسام المادية، فانخذ من تلك المادة التي تملأ جوانب الكون، قوالب وأشكالا لكي يبرز عن طريقها الى عالم الواقع المحسوس، وهذه الصور والأشكال المادية التي تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك

مثل هذا الشعر يكون ترجمة لاحساس الشاعر فما دام انه محب فله أن يعبر عما يحس، وليس لنا أن نتهمة في ذلك بضعف، بل أنه يكون ضعيفا حقاً ان هو أحس عذاباً من وراء حبه ثم لم يستطع الافصاح عنه.

ولم يكن الأدب العباسي ضعيفاً، لما جاء فيه من بكاء ومديح واستهتار، فان الأدب في كل عصر صورة لذلك العصر، فاذا عبر أدباء العباسيين عما يحسون فلم تهمهم بالضعف؟ وإذا كان أدبهم حزيناً با كياً يتخلله المديح والاستهتار فكيف كان يتسنى لهم أدب غيره، وإذا هم تناولوا في غير عزة وتفاخروا في غير غفر وضحكوا في غير مزح، افما كنا نتهم ادبهم بأنه سقيم زائف أو بعبارة أخرى ضعيف مائع؟

ثم أن الضعف السياسي لا يستلزم أن يكون وراءه ضعف في الأدب، بل لقد يكون الضعف السياسي ذاته سبباً قوياً من أسباب قوة الأدب، كما يحدث عند انقسام الدول الواسعة كما كان الحال في القرن الرابع، وكما كان الحال عند الإغريق في مدنهم الحكومية وكما كان الحال في النهضة الإيطالية الحديثة.

وليت شعري لم لا يكون بكاء الشعوب على ما يصيبها قوة واستنهاضاً للهم؟ هزمت فرنسا في حرب السبعين وخرجت ألمانيا متفاخرة بالنصر، فخطب أحد أدباء الفرنسيين الألمان الظافرين بقوله: «نعم قد انتصرتم علينا ولكن ليس لديكم شاعر يشيد بنصركم كشاعرنا هذا الذي يبكينا على مصابنا فهل كان بكاء الفرنسيين في ذلك الوقت ضعفاً؟ اللهم لا.

وأما ما جاء عن مصعب بن الزبير حين استخفه الطرب، وعن استخفاف المنصور به لذلك حتى جعله يمثل تلك الآليات التي أوردها الاستاذ، فاقول أن مصعباً كان متغزلاً وأن المنصور كان متفاخراً وشتان بين الموقفين، فهذا تستملح فيه الرقة واللين وذلك لا يليق فيه إلا الصرامة والشدة. وإذا كان في كلام مصعب ضعف فاذا يكون في كلام الرشيد وهو يخاطب جارية بهذا البيت:

أما يكفيك أنك تملكني وأن الناس كلهم عبيدي؟

وبعد فيعجبني من الاستاذ قوله أن أرقى الأدب في نظره ما احيا الضمير، وزاد حياة الناس قوة، وهذا في رأي هو الأدب الوجداني القوي، هو ذلك الأدب الذي يرقق القلوب، ويستثير الهمم، ويظهر النفوس، هو ذلك الأدب الذي يجعل من الشيخ شاباً فتياً، وهو ذلك الأدب الذي يملأ المحاجر بالدموع والقلوب بالشفقة والحنان؟

القانون الخالد، لا تظل على هيئة خاصة معينة، فهي متغيرة متبدلة أبداً، بل قد تزول وتفني، ولكن تلك الحقيقة نفسها باقية خالدة لا تفني ولا تزول، بل لا تنقص ولا تزيد، وهي لا تفتأ تلبس هذا الثوب المادى وتخلع ذاك الى ابد الأبدن. ذلك كما تقول ان للدائرة قانوناً لا يتغير، يخضع لنا موسه كل ما وجد أو يوجد من الدوائر، وان كانت الدوائر نفسها تمحى وتتجدد، الا ان قانونها يظل باقياً لا يعتريه التبدل أو الفناء. فاجسامنا، وأفكارنا وهذه الأرض التي نعيش عليها، وكل ما يحتوى الكون من أشياء، كل ذلك صور مختلفة تستخدم لابرار الحقيقة الكائنة وراها. والتي لا يمسها معنى من معاني التغير والتبديل، انما القوالب المادية وحدها هي التي تخضع لذلك التبديل والتغير.

فالطبيعة على هذا الاساس مزدوجة الجوانب، فهي فعالة حيوية منشئة من ناحية (قارن أل Elan vital في فلسفة برجسون) وهي منفعة متأثرة منشأة من ناحية أخرى، هذا الجانب المنفعل المتأثر من الطبيعة هي اجزاؤها المادية، هي هذه الجبال والبحار والمزارع والرياح وما الى ذلك من الصور المادية التي لا يحدها الحصر، أما الجانب الفعال المنشئ فهي تلك القوة الكامنة وراء هذه الصور المادية، وهي التي خلقتها خلقاً وأبدعتها ابداعاً، أو بعبارة أوضح هو الله عز وجل... ويقصد سينوزا بكلمة الله، ذلك القانون الثابت الذي لا يجوز عليه التغير أو الفناء، تلك القوة الفعالة التي تنظم الكون وتباشر ترتيب ما يطرا من أحداث على المادة التي تملأ جوانب الكون. ولولا تلك القوانين العامة التي يسير بمقتضاها العالم، لتداعي الكون بعضه على بعض، مثل ذلك مثل الجسر (الكوبرى)، فهو في حد ذاته كتلة من المادة، ولكنه مشيد على أساس من القوانين الرياضية والميكانيكية، التي وان تكن مخفية لا تظهر بشكل محسوس، في مادة الجسر، الا أنها كامنة فيه، ولو اختل واحد منها انهار البناء على الفور. فالعالم المادى بمثابة ذلك الجسر، والله سبحانه وتعالى من هذا العالم بمثابة تلك القوانين التي لا نرى ولكنها لا تنكر.

وعلى هذا الاعتبار تكون ارادة الله وقوانين الطبيعة شيء واحد، وكل ما يقع من حوادث عبارة عن النتيجة الآلية المحتومة لتلك القوانين الدائمة، أى أنها ليست عبثاً ولا فوضى. فهذا العالم تسيره تلك الارادة العليا، وليس مخيراً في كثير

ولا قليل عما يفرض عليه فرضاً، وليس له عن تنفيذه محيد. والانسان - ككل جزء آخر من أجزاء العالم - يسير كذلك في هذه الطريق المرسومه، الا أنه قد تبلغ به الانانية حدا بعيداً فيظن أنه المقصود من خلق هذا الكون الفسيح، وان هذه الطبيعة وما فيها انما وجدت من أجله ولصالحه، ولكن لا يجوز للفيلسوف بحال من الأحوال ان ينظر الى العالم هذه النظرة الشخصية الضيقة فواجب أن نجرد أنفسنا من نزعتنا البشرية، حتي يتسنى لنا أن ندرك الكون مستقلاً عنا، بعيداً عما تمليه أغراضنا، وان ندرسه دراسة موضوعية (objective) كحقيقة عارية لا تؤثر فيها الميول الانسانية. فلا ننسب الخير والشر لهذا الشيء أو ذاك لأن الخير والشر نسيان للبشر، وليس لهما وجود في الواقع، فاذا ما حكمنا على شيء في الطبيعة بأنه عبث وشر، أو أنه يثير فينا السخرية. فذلك لأننا لا نعرف الأشياء الا معرفة جزئية، ولأننا نريد أن تسير الأمور كما نشتهي نحن، وحسب ما تمليه عقولنا، لأننا نجعل أن الكون وحده لا تتجزأ، فما نحكم عليه بأنه شر ليس في الحقيقة شراً بالنسبة للقوانين التي تسير الطبيعة بمقتضاها. ولكنه شر بالنسبة لطبيعتنا نحن بعد فصلها وانزاعها من تلك الوحدة الكونية. فالشر والخير أو هام لا تعرفها الحقيقة الخالدة. لا ولا الجمال والقبح لأنهما كذلك أو صاف اصطلاح عليها الانسان. فالشيء الجميل والشيء القبيح هما في نظر القوانين العامة سواء، ولا تفضل لاحدهما على الآخر. هكذا يريد سينوزا أن نجرد أنفسنا من كل النزعات والميول والأغراض وأن ننظر الى العالم من وجهة نظر الواقع، لا من وجهة نظرنا نحن، حتي نصدر أحكاماً صحيحة، يجب أن ننظر الى العالم نظرة مجردة كما ننظر الى المثلث مثلاً، فأنه لا تحكم عليه كما يقع في نفسك، فيكون لك فيه رأى ولى فيه رأى آخر، لا بل ننظر اليه بالنسبة الى القانون العام المجرد الذي يتحكم في جميع المثلثات على السواء، فيكون المثلث عندك كما هو عندى وعند أى انسان. فلننظر اذن الى هذا العالم من وجهة نظر قوانينه الثابتة الشاملة حتى لا يتغير باختلاف الميول والأشخاص، ويزعم سينوزا: ان تلك النظرة الشخصية قد أفسدت علينا فهم الله سبحانه وتعالى فيها صحيحاً، فآخذنا ننسب اليه صفاتنا نحن، لماذا؟ لأننا أبصرناه من نافذة نفوسنا، ولم نتجرد لنطل عليه من جانب الحقيقة والواقع، فنحن مثلاً نتصور الله في صورة المذكر دائماً، ولا نرضي ان نصبغه بصيغة التأنيث، نقول هو

ولا نقول هي ، وليس ذلك الا نتيجة لخضوع المرأة لسلطان الرجل ، كذلك ننسب اليه كل الصفات التي نراها حسنة كاملة لا من حيث الواقع ولكن من حيث حكم العقل البشرى المحدود بميله وأغراضه . وقد كتب سينوزا في ذلك الى أحد معارضيه يقول : « اذا اعترضت على بانتي لا أريد أن أصف الله بالنظر والسمع والملاحظة والإرادة وما الى ذلك من الصفات ... فانت اذن لا تعرف الآله الذي أتصوره ، وأحسب أنك لا تستطيع أن تتخيل مثلاً أعلى من الصفات السالفة الذكر ، وانى لأستغرب منك هذا القصور في الخيال ، لأننى اعتقد أن المثلث اذا استطاع أن يعبر عن نفسه ، لقال كذلك أن الله يتميز بصفات المثلث . كما تقول الدائرة أن طبيعة الله دائرية . وهكذا ينسب كل شيء الى الله من الصفات ما يراها في نفسه ،

الله عند سينوزا هو مجموع الأسباب والقوانين جميعا ، وقوته هي مجموع القوى العقلية السكاملة في كل أجزاء المادة المنتشرة في الزمان والمكان . لان لكل شيء في الوجود جانباً عقلياً أى روحياً كما أن الامتداد أى الجسم جانب آخر .

ولكن ما هو العقل وما هي المادة ؟ ذهب الخيال الجامح ببعضهم الى حد القول بأن المادة روح كلها ، وليس الجسم الا محض فكرة ، كما جمد الخيال عند بعض آخر الى حد القول بأن العقل مادة كله ، وليست الافكار الالعمليات جسمية ، وذهب فريق ثالث الى أن العقل والمادة مستقل بعضهما عن بعض ، الا انها متوازيان في عملهما ، أي أن العقل يفكر والجسم يتحرك دون ان يكون بين ذلك التفكيك وهذه الحركة علاقة ما . يستعرض سينوزا هذه الآراء جميعاً فيرفضها جميعاً ، فلا المادة روحية ولا العقل مادي ، ولا هما مستقلان متوازيان ، اذ ليس هناك شيئان متميزان : عقل ومادة ، حتى نبحث عن العلاقة بينهما ، بل تمت شيء واحد فقط ، وعملية واحدة فحسب ، لها مظهران أو جانبان ، فانت تراها الآن باطنياً في صورة الفكرة ، ثم تراها خارجياً في صورة العمل . فالعقل والجسم وحدة لا تتجزأ ، وكل أجزاء الوجود لها هاتان الشعبتان المتميزتان المتحدتان ، وبعبارة أخرى ، المادة التي في الكون والروح التي في الكون شيء واحد ذو وجهين ، وبعبارة ثالثة ، الطبيعة والله شيء واحد ، واذا كان الأمر كذلك من توحيد العقل والجسم ، أي الروح والمادة وجعلها شيئاً واحداً ، فلا اختلاف اذن بين الإرادة والذكاء ، مادامت الإرادة هي عبارة عن نزوع الجسم الى عمل معين ، والذكاء هو القوة الفكرية الخالصة

وهانحن أولاً قد رأينا أن أعمال الجسم وقوة الفكر ليسا الا ناحيتين من حقيقة واحدة .

الانسان اذن بعقله وجسمه وحدة لا تقبل التقسيم ، وعماد وجوده هو الرغبة اللاشعورية في البقاء ، فالرغبة اللاشعورية عند سينوزا هي كنه الانسان وجوهره (قارن ارادة الحياة عند شوبنهاور ، وارادة القوة عند نيتشه) وكل الغرائز خطط دبرتها الطبيعة لحفظ الفرد أو النوع ، والسرور والالام ينشآن عن اشباع الغرائز أو تعطيلها ، فليس السرور والالام سبيلاً لرغبتنا كما يذهب فريق من المفكرين ، ولكنهما نتيجة لها . نحن لا نرغب في الشيء لانه يسرنا ، ولكنه يسرنا لاننا نرغب فيه ، ولا بد لنا أن نرغب فيه لانه يشبع لنا الغرائز التي تمهد لنا سبيل البقاء ولا بد أن يكون القاري قد سارعت اليه النتيجة الطبيعية لهذه المقدمات ، وهي أن ليس تمت ارادة حرة ، وأن الانسان مجبر على السير في طريق معينة مرسومة ، ليس له أن يجحد عنها قيد شعرة ، لان ضرورات الحياة تحدد الغرائز ، والغرائز تملئ الرغبات ، والرغبات تخلق الافكار والاعمال المعينة . وقد يتوهم الانسان انه حر فيما يفكر ويعمل ، ومنشأ ذلك الظن الخاطيء أنه مدرك لرغباته ولكنه يجمل الاسباب التي تسوق اليه تلك الرغبات ، فيخيل اليه انها انما تولدت بمحض ارادته ، والحقيقة ان هناك من الدوافع الغريزية ما تحتم عليه أن يحقق هذه الرغبة أو تلك رغم أنفه ، فهو يدرك النتائج فقط ويجمل الاسباب الدافعة اليها ، ويشبه سينوزا الانسان في ذلك بقطعة من الحجر الملقى ، الذي لا بد له من أن يسقط في مكان معين تبعاً لقوة الدفعة ، فلو فرضنا ان ذلك الحجر الملقى له ادراك كالانسان ، لظن أنه انما يسقط في هذا المكان الخاص ، وفي هذه الساعة المعينة ، لأنه يريد ذلك ، وهذا لانه يجمل اليد التي دفعته فقسرتة على تصرف لا يستطيع أن ينحرف عنه .

وهكذا تخضع أعمال الانسان لقوانين ثابتة ثبوت القوانين الهندسية ، ومعنى هذا أن الانسان جزء لا يتميز من سائر اجزاء الطبيعة ، بل يندمج فيها ويخضع لناموسها . الانسان ظاهرة مادية ككل الظواهر الاخرى يتحكم فيها ذلك القانون الشامل الذي يكمن وراء الكون جميعاً ولا يفصل عنه ، بل يكون معه كلا لا تنقسم عراه . وقد ضربنا مثلاً بذلك الجسر (السكوبرى) وقوانينه الميكانيكية ، نحن أجزاء من ذلك التيار الذي يجرف أمامه كل شيء ، تيار القانون العام والسببية ، ولما كان ذلك القانون هو الله ، فنحن اذن أجزاء من الله تعالى ، ولو أن الأفراد تفنى بالموت ، الا أن

عمالقة الاشجار

للدكتور محمد بهجت

خريج جامعة كاليفورنيا

لا ريب ان العالم كان مسكونا بكائنات على جانب عظيم من الضخامة ، فالعلم يخبرنا عن « الدينوسور » Dinosaur العظم الذى يوجد هيكله العظمى الهائل بالمتحف البريطانى مع هياكل أشباهه من عظام الحيوان وأغواله . وكذلك «العنقاء» ، أو الطير العظيم المسمى « بترودا كيتيلس » Petrodactyles ، ولم يكن هذا الاخير طيرا بمعنى الكلمة أو وطواطا بل نوعا من العظايا الهائلة اكتسب خصوصية الطيران .

دبت هذه الحيوانات المرعبة على ظهر الارض في العهد « الميوسيني » Miocene كما يسميه علماء طبقات الارض أو عهد منتصف الحياة ، وذلك من ملايين السنين الحالية ١١ ويحتمل انها عاشت قبل الانسان بكثير .

ويظهر ان هذه الحيوانات انقرضت فجأة بفعل بتاثير بركان غيف أبان معظم المخلوقات ، ثم تبع ذلك العصر الجليدى فأتى على آخرها ولم يترك لنا من آثارها الا عظاما نخرة أقامها العلم هياكل هائلة ووقف الانسان مبهوتا فاغرا فاه ، أما في البحار فلا يزال بها من المخلوقات العظيمة ما لم تنقرض كاقربائها الدواب ، فالخوت الهائل يمخر البحار ويشق عباها ، وأذكر انهم اقتنصوا وحشا منه في المحيط الهادى قرب شاطئ كاليفورنيا الجنوبي منذ سنتين وكان وزن سبعين طنا ١١

كذلك كان الحال في المملكة النباتية ، كانت لها عمالقتها ، كانت هناك أشجار ضخمة تؤلف غابات شاسعة تشمل المناطق الشمالية من أوروبا وأمريكا ، ولا ريب انها أظلت وحمى الكثير من تلك الوحوش ، ومن هذه الاشجار شجرة « السيكويا » Sequoia — ملكة النباتات — التي قاومت ولا ريب كل المحن التي ألت بالكانات الحية التي عاصرتها ولكنها نجت من دوما وعاشت الى هذا الوقت تخبرنا في صمت رهيب ، عن ماض بعيد ملي بالكوارث والخطوب .

وتتبع شجرة السيكويا الى العائلة الخروطية أى عائلة الصنوبر ، ويوجد منها نوعان : « سيكويا سميرفيرنس » Sequoia sempervirens

تلك الحقيقة الخالدة التي تتمثل فينا ، باقية لامتوت . اجسامنا خلايا في جسم الجنس ، والاجناس أعضاء من جسم الحياة ، وبهذا الدمج — دمج الفرد في الكل — يقول شاعر هندي « اعلم أن روحا واحدا ينظم نفسك في الكل ، وانبدالوهم الذي يفصل الأجزاء عن كلها الشامل ،

وباعتبار الانسان جزءا من كل ، فهو خالد . ذلك لأن القانون الذى يسيره لا يفنى بفنائه كما قدمنا ، بل هو أبدى تظهر آثاره في الافراد بعد الافراد . فانت اذا محوت مثلثا مخطوطا على ورقة أمامك ، فليس معنى ذلك فناء القوانين التي تخضع لها المثلثات ، لأن هذا المثلث المعين الذى محوته ، لم يكن شخصية منفصلة عن زملائه المثلثات ، بل يضبط الجميع ناموس واحد لا يعتربه التغير والفناء . وقل مثل هذا تماما في أفراد الانسان ، يموت الواحد ويبقى قانونه ممثلا في سائر الافراد ، وهذا هو معنى الخلود عند سينيوزا ، وهو كما ترى ليس خلودا لأفراد ، بل خلودا للقوة وقانون ، وذلك يتضمن بالطبع انكار الثواب في الحياة الآخرة جزاء الفضيلة الدنيوية . وهو يقول في ذلك : « ان هؤلاء الذين ينظرون للفضيلة كأنها عبودية مفروضة عليهم من الله تعالى ، ولا بد أن ينجمهم الله جزاء على قيامهم بهذا الفرض الثقيل ، انما هم أبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة على الوجه الصحيح . فالفضيلة أوطاعة الله هي سعادة في نفسها ، يشعر الانسان بالطاعة والنعيم في أداها ، فعلام تنتظر الجزاء ؟ انك تكون كرجل أسكنه سيده قسرا فخما وأعد له فيه كل ألوان النعيم ، فيظل يرتع فيه وينعم ، ثم هو بعد ذلك ينتظر من سيده أجر البقاء في ذلك النعيم ١١

والخلاصة أن الطبيعة تسير بمقتضى قوانين ككامنة في صورها كما تكمن قوانين الصوت مثلا في جهاز الراديو ، فكما أنك لا تستطيع أن تقول هذا هو الجهاز المادى للراديو ، وتلك هي قوانينه النظرية منفصلة ، بل هما شئ واحد لا ينفصل ، كذلك لا يمكنك أن تقول هذا هو العالم المادى وتلك هي القوة الروحية التي تسيره ، لأنها متصلان في وحدة لا تتجزأ . وبما أن هذه القوانين تسيطر على كل جزء من أجزاء الوجود — والانسان واحد منها — فالانسان يسير بمقتضى تلك القوانين الثابتة . ولا يتمتع بذرة من الحرية في تصرفاته .

وهناك جوانب أخرى من فلسفة سينيوزا ، فقد كتب رسالة في الاخلاق وأخرى في النظام السياسى ، وكنا نحب أن نتناولهما بالشرح الموجز لو لا ضيق المقام ، فلعلمنا نوفق الى تحقيق ذلك في مقال آخر ؟